

كيف كان الجنوب لحظة إعلان لبنان الكبير

صابرينا ميرفان
حركة الإصلاح الشيعي
دار النهار

جعل الموقع الجغرافي من جبل عامل ممرّاً لا غنى عنه للقوافل التي كانت تصل الداخل مما سوف يُسمّى بسوريا، بالساحل من جهة، وبفلسطين من حيفا إلى غزّة من جهة ثانية. والواقع أنّ مدن الساحل، ومنها حمص وحماة، كانت تشكّل مركزاً لإنتاج الحبوب، وكذلك حوران ذات الإنتاج الضخم من القمح. كذلك الحال في ما يتعلّق بالمواشي والمنتجات الحرفيّة ولا سيّما الأقمشة والصابون، وكانت تُصدّر نحو أسواق عثمانيّة على وجه الخصوص ومنها مصر وباقي مقاطعات السلطنة.
وقد لاحظ كونيه أن "القوافل التي كانت، مثلاً، تنقل القمح من حوران إلى بيروت أو إلى حيفا، كانت تتوالى على الدروب طوال شهر"، وتمر بجبل عامل، وذلك في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. وكانت ترتاح أثناء سفرها في دساكر واقعة بين الداخل والساحل، قبل أن تصل إلى المرافئ. وكانت جميع الأعمال التجارية في هذه الدساكر قائمة على مرور هذه القوافل. كذلك كانت الأسواق الأسبوعيّة للقرى الواقعة على حدود جبل عامل عظيمة الحيويّة: في الخيام ومرجعيون والعديسة وجباع ولا سيما في بنت جبيل التي كانت حقّاً، باباً مفتوحاً على فلسطين، وكان سوق الخميس فيها أكبر سوق في جبل عامل. أما في الداخل فكانت هناك أسواق العباسيّة وجويا وتبنين، وأشهرها سوق النبطية، الذي كان يجمع خمسة آلاف شخص.

تقهقر

كانت صيدا أكبر المدن حظّاً من هذا الموقع المميز: فقد كانت أولى أهراء دمشق وداخل البلاد، في أوائل القرن التاسع عشر، حسبما يقول فولناي.

وكانت تعتبر المدينة الثانية بعد دمشق من الوجهة الإدارية والاقتصادية. وكانت صور أقل حيويّة من صيدا، نظراً إلى وضع مرفأها الأصعب، على أنّها كانت تستقبل كثيراً من البضائع. يقول لورتيه: "تصدر المدينة كميات كبيرة من القطن والحرير والتبغ والحجارة البركانية المستعملة للطحن الآتية من حوران عبر وادي القاسمية الوعر. إلا أن هذين المرفأين استُبدلا شيئاً فشيئاً بمرفأ بيروت الذي ابتدأ بتصدير البضائع الآتية من جبل لبنان على حساب طرابلس، بخاصّة، وصيدا. وقد تسرّعت هذه الحركة

1 أيلول 1920

بعد أن افتتحت طريق العربات واصلة دمشق ببيروت وذلك سنة 1863. وقد أدّى هذا التقهقر إلى تسريع الهجرة، وكانت قد بدأت قبل ذلك، ليس إلى بيروت فحسب، بل إلى مدن أخرى في السلطنة، وكذلك إلى أفريقيا والعالم الجديد.

نتائج سلبية

وعلى هذا فإنّ جبل عامل لم يستفد من تنامي طرق المواصلات ولا من تطور التبادل التجاري الحاصل من تغلغل الأوروبيين في هذه البلاد، خلافاً لجاره جبل لبنان. كذلك فإنّه لم يُدفع به، مثل جاره، إلى خضم الاقتصاد الرأسمالي العالمي، ولم يشهد التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الكبرى التي شهدها جبل لبنان. وكان إذا أصابه من هذه التحولات نصيب، فإنّما يكون ذلك بطريق غير مباشر وتكون نتائجه سلبيّة في أغلب الأحيان.

فالزراعة في جبل عامل، وكانت إمكاناتها غنيّة نسبيّاً، غدت مرتبطة باقتصاد السوق الذي فرض عليها زراعات جديدة: فبدأت زراعة الحبوب تستبدل شيئاً فشيئاً بالتبغ. وبدأ المزارعون بالاستدانة من تجار ووسطاء آخرين آتين من الشمال. وفيما كان رأس المال البيروتي يحقّق الأرباح من تجارته العامليّة، كان يعيد استثمار هذا المال في إنشاء المعامل في جبل لبنان، ولم يكن في جبل عامل لا تراكم في رأس المال ولا استثمار في الصناعات الحرفية. وأما الموارد الماليّة فكانت تستعمل في شراء الأرض وكذلك الأموال التي كان يرسلها المهاجرون. ولم تدخل الآلات ذات المحرّكات إلا في مجال واحد، وهو طحن القمح، حينما استورد أحد العامليين، سنة 1899، بمساعدة شريك بيروتي، مطحنة وبدأ بتشغيلها.
وهكذا اتسعت الهوّة بين جبل عامل وجبل لبنان، وقد أصاب هذا الأخير وقع التمدّن الأوروبي وشهد تطوّراً اقتصاديّاً متدرِّجاً. ويمكن، في المقابل، أن نقيم مقارنة بين جبل عامل وعكّار، وهو منطقة زراعيّة شمالي جبل لبنان، يتصل بطرابلس أكبر مدن الشمال على الساحل. أُصيبت منطقة عكار بتقهقر يشابه التقهقر الذي أصاب جبل عامل، فَخَفَّت الحركة في مرفأ طرابلس وتحوّل التبادل التجاري بين طرابلس وحمص وحلب، إلى بيروت. كذلك فإنّ سلطات الانتداب الفرنسي ضمّت هاتين المنطقتين ومعهما البقاع، إلى جبل لبنان سنة 1920، وذلك للتعويض عن نقص القمح فيه.

النهضة

إن الأفكار السياسية التي هزّت الشرق الأوسط أوائل القرن العشرين، ولا سيما منها القومية العربية، قد وصلت، بالطبع، إلى جبل عامل وكان لها أتباع. إلا أنه يجب ألا يُخفى علينا أن الزعامة احتفظت فيه برسوخ خاص بها، وأن الحياة السياسية برمّتها كانت تدور في فلك التنافس بين الزعماء. وبالفعل ظلّت الروابط القديمة حيّة إلى جانب الأحزاب السياسيّة التي نشأت حديثاً. ولم يخرج رجال الدين على مجريات هذا المنطق، بل على العكس من ذلك، لأنّهم كانوا حلفاء الزعماء.
يؤرّخ بعض الكتّاب أوائل النهضة في جبل عامل بسنة 1882، لأنّها شهدت افتتاح أول مدرسة من النمط الحديث في النبطية. وأصبحت بلدة النبطية قائمقامية صغيرة. ومهّدت الإصلاحات العثمانية لظهور الوجهاء، وكانوا من التجار البرجوازيين المدينيين أو من الموظفين في الإدارة العامة. وكان على هؤلاء أن يؤمنوا لأولادهم تربية وتعليماً حديثين طامحين بذلك إلى تكاثر جماعتهم أو إلى تأمين ترقيها الاجتماعي. على أن جبل عامل، في ما خلا الإرساليّات المسيحيّة، لم يكن فيه من المؤسسات التعليمية غير الكتّاب والمدارس الدينية. ولذلك قرّر (قائمقام النبطية) رضا الصلح سنة 1882 أن يُنشئ مدرسة حديثة في النبطية، افتتحت بعد سنتين من ذلك. وكان المعلمون الآتون من بيروت وطرابلس، يدرسون النحو والصرف والأدب العربي والتاريخ والجغرافيا، واللغة التركية التي كانت اللغة الرسمية. وكان في المدرسة ستون تلميذاً. إلا أن هذه التجربة لم تدم طويلاً. فقد أغلقت مدرسة النبطية أبوابها سنة 1891. وقد قامت محاولات عديدة بوحي من روح الإصلاحات العثمانية، لمتابعة الجهد الهادف إلى إدخال تعليم من النمط الحديث وإلى تنظيم نشر المعرفة في جبل عامل. فقام الوجهاء والأدباء بتأسيس كثير من الجمعيات الخيرية لهذا الهدف، وقد تركزت في النبطية. ولا بد من أن جمعية المقاصد التي أُسست في صيدا، قد كانت نموذجاً اتبعه أدباء النبطية.
وقد بقي عدد المدارس الإجمالي في جبل عامل غير كافٍ. وكان من يدخل الكُتّاب من الأولاد عشيّة الحرب الكبرى لا يتعدّى الخمسة في المئة. وكان بإمكان التلامذة الذين قاموا بدراستهم الابتدائيّة أن يبدأوا بالمرحلة الثانوية في صيدا أو في صور إما على النظام التركي أو على نظام الإرساليّات. وكان عليهم بعد ذلك أن يذهبوا إلى بيروت إلى الكليّة الإنجيلية بالتحديد، أو إلى معاهد إسطنبول، إلا أن القليل منهم كانوا يصلون إلى هذه المرحلة.


أثار الهبارية (عن VAN DER VELDE)

الانتماء الشقي

حسان الزين

فاجأ ضمُّ جبل عامل وصيدا وحاصبيا إلى لبنان الكبير، في 1920، سكان تلك المناطق. الفكرة لم تكن واردة. كان الميل في تلك المناطق إلى الانتماء إلى دولة عربية.
الضمُّ إلى لبنان كان يعني إلحاقاً بجبل لبنان واقتطاعاً من المجال العربي.
والأمران خطيران بالنسبة إلى جبل عامل وصيدا وحاصبيا.
فالأمر الأوّل كان يكشف التفاوت الاقتصادي والاجتماعي والثقافي بين جبل لبنان وبيروت وبين تلك المناطق.
والأمر الثاني كان يعني قطع صلات جبل عامل وصيدا وحاصبيا بمحيطها وبيئتها الثقافية والاجتماعية والتجارية... وإدخالها ضمن حدود تجهل موقعها ودورها فيها، وتجهل مستقبلها أيضاً.

•••

هكذا، وفي ظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية وأمنية صعبة، ووسط تحولات دولية، تعقّد انتماء تلك المناطق إلى الدولة الناشئة الواقعة تحت انتداب أجنبي، فرنسي.
نما الشعور بالهامشية والإلحاق والمظلومية والحرمان. وزاده قلقاً ورفضاً احتلال الحركة الصهيونية أجزاء من فلسطين وإقامة دولة إسرائيلية.
ومع تمركز النمو الاقتصادي في جبل لبنان وبيروت، ومع تمادي هيمنة المارونيّة السياسيّة في الحكم، ارتبك الانتماء إلى لبنان.

•••

إزاء هذا، انتشر في هذه المناطق التي باتت جنوب لبنان، الفكران القومي واليساري. فهما يترجمان:
-رفض تجزئة المنطقة والاقتطاع عن المحيط العربي،
-رفض احتلال فلسطين ومخاطر الصهيونية وكيانها،
-رفض الضم إلى دولة ذات نظام طائفي تمييزي ومُحتَكرة من فئة وتهمّش تلك المناطق،
-رفض التفاوت والواقع الاقتصاديين والاجتماعيين وتسلّط المقاطعجيين والزعماء وتبعيّتهم للفئة الحاكمة.
ثم جاء الإمام موسى الصدر. وإذ كان أقرب من التشكيلات القومية واليسارية إلى لبنان وصيغته، كان صوتاً معارضاً من داخل النظام، لا سيما في ما يخص الحرمان والتفاوت بين المناطق والطائفية السياسية والموقف تجاه إسرائيل.

•••

الآن هنا، تجمّعت ثلاثة مصادر للوطنيّة اللبنانية في الجنوب وبدأت تطوي صفحة الضم والإلحاق بلبنان، وهي:
مقاومة احتلال الحركة الصهيونية فلسطين واعتداءاتها على الجنوب؛
الأفكار القومية واليسارية وتشكيلاتها السياسية؛
وحركة السيد الصدر.
وقد تقاطعت هذه المصادر عند رفض الواقع الاجتماعي والاقتصادي ومعارضة النظام الطائفي التمييزي وسياساته الداخليّة والخارجيّة.

•••

اليوم، نحن بحاجة إلى إعادة التفكير في هذه المسيرة، للمساهمة في صوغ الوطنية اللبنانية الواقفة عند مفصل تاريخي بعدما أُرهِقت بالتفاوت والاحتكار والصراعات والأحاديّات والهيمنات والتبعيّات والطائفيات.

•••

هنا مجموعة من النصوص المختارة من كتب تاريخية وأدبية، تُجيب عن سؤال "كيف كان الجنوب لحظة إعلان لبنان الكبير (1920)؟".

فلاحون وعلماء وزعماء ووجهاء... هكذا عاشوا

تمارا الشبلي

شيعة جبل عامل ونشوء الدولة اللبنانية
1918 - 1943 -دار النهار

المعلومات عن سكان جبل عامل، محدودة قليلة. فالإحصاء العثماني لعام 1882، يبقى مبتوراً مع استثنائه النساء والأطفال من التعداد. وفي العام 1912، قدّر مؤلّفا "ولاية بيروت"، عدد سكان جبل عامل بـ126,759 نسمة.

وفي أثناء تجواله في المنطقة العام 1870، كتب الطبيب الفرنسي Louis Lortet، أن أهالي المنطقة عملوا في الزراعة لمدة طويلة، وأورد إثباتات تدعم ذلك، كبقايا الطواحين القديمة ومعاصر الزيتون والآبار والنواويس الحجرية. غير أن التقنيات الزراعية لم تكن متطورة في المنطقة. ويرجّح سبب عدم بروز محاولات جدية لتطوير التقنيات الزراعية، إلى مناخ المنطقة الملائم وأراضيها الصالحة للزراعة، خلافاً لجبل لبنان المجاور، حيث جرت محاولات أكثر ابتكاراً، بخاصة في ظاهرة إنشاء الجلول لزراعة الكروم. وفي الواقع يلحظ مؤلفا كتاب "ولاية بيروت"، أن 301 كلم م من أصل 540 كلم م من مساحة قضاء صور، كانت صالحة للزراعة. كذلك أغنت أنهار الأولي والليطاني والزهراني، المنطقة عن محاولات تطوير شبكة للري، باستثناء برك وأحواض لتجميع مياه الأمطار واستخدامها في زراعة التبغ.

الحقول

كان القمح المحصول الزراعي الأكثر أهمية في جبل عامل، فقد شكلت هذه الزراعة العام 1912، على سبيل المثال، 46% من مساحة الأراضي المزروعة في قضاء صور، وكان جبل لبنان وجهة التصدير الأساسيّة له، إذ لم يكن إنتاج الجبل اللبناني من القمح يكفيه لأكثر من أربعة أشهر. ومع غياب المصادر، ليس لدينا ما يشير إلى زمن رسوخ هذه الزراعة وازدهارها في جبل عامل. لكن مقارنة مع منطقة حوران، التي ازدهرت فيها هذه الزراعة في القرن التاسع عشر، تدفعنا إلى القول بنشوء حالة مماثلة في جبل عامل، وإن على نطاق أقل عمقاً وشيوعاً.

كذلك ازدهرت زراعة التبغ في جبل عامل منذ زمن بعيد. فهي كانت معروفة في أواسط القرن الثامن عشر، إذ ذكر إتلاف حقول التبغ، أثناء معركة بين العامليين والدروز. وقد لاحظ الرحالة المستشرقون، أهمية زراعة التبغ في جبل عامل، وتكلّموا عنها بإيجابية: "يشكل التبغ أهم صادرات بلاد بشارة" و"هو ينمو بشكل ماوي لافت"، و"نظراً لجودته كان يستعمل في بلاط سلاطين بني عثمان".

تأثرت الحياة الاقتصادية في جبل عامل بالتقلبات الحاصلة في الإنتاج وفي شروط زراعة التبغ. ولولا احتكار هذه الزراعة، لكان محصول التبغ هو الأكثر إفادة ومردوداً في الاقتصاد العاملي. لقد تأسست شركة الريجي لحصر التبغ في أواخر القرن التاسع عشر. أي أنها باشرت إدارة زراعة التبغ في جبل عامل، قبل أن تنشأ في هذه المنطقة بنية رأسمالية ملائمة لتوظيف الأموال في الصناعة.

كتب الشيخ أحمد عارف الزين، أن تأثير الريجي على الفلاح العاملي كان مدمراً، "لم يحس العامليون بآلام الفقر وبضيق مذهب الارتزاق، وبذهاب كل أمل بالثروة، وبضياع كل نفع من العمل، وبانقطاع كل رجاء بإصلاح شؤونهم الزراعية والاقتصادية، إلا يوم أرهقتهم شركة انحصار التبغ بأغلالها وأصفادها، ودفنت مستقبل بلادهم الذي كان يبتسم لهم عن ثغر الفلاح".

أما على صعيد الأشجار المثمرة، فإن زراعة الزيتون لم تعرف تجديداً لأشجارها، طيلة القرن التاسع عشر، أي بعد عقود من حملة الجزار التدميرية في جبل عامل العام 1780. فقد كانت المهمة الأولى لجيش الجزار يومها، حسبما روى لورتيه، "قطع الأشجار".

كذلك وجدت في جبل عامل، بعض بساتين متنوعة من الفاكهة في منطقة جزين، وفي جباع وفي ناحية مرجعيون. لكن الضرائب المرتفعة، لم تكن لتشجع على الاعتناء بتلك البساتين ورعايتها. هذا بالإضافة إلى منافسة نتاج جبل لبنان، حيث تزدهر بساتين الفاكهة والأشجار المثمرة.

العلاقة بجبل لبنان

ارتبطت حياة جبل عامل الزراعية، ارتباطاً وثيقاً بالحياة الاقتصادية في جبل لبنان. بحيث كان يتم التعريف عن جبل عامل سياسيّاً واقتصاديّاً، بلغة تعبّر عن مدى تفاعله مع جبل لبنان بشكل خاص. ولما كانت طاقة الإنتاج الزراعي في جبل لبنان، تقتصر على تأمين اللحوم والحبوب لمدة أربعة أشهر من السنة فقط، إضطر سكان الجبل اللبناني إلى التفتيش عن مصدر آخر للمؤونة، فتطلّعوا نحو جبل عامل في الجنوب، حيث كان القمح من المحاصيل الأساسية المتوافرة.

ارتبطت حياة جبل عامل الزراعية ارتباطاً وثيقاً بالحياة الاقتصادية في جبل لبنان

وكان للتوسّع الرأسمالي الغربي في جبل لبنان، تأثيره السلبي على الحياة التجارية في جبل عامل. فبينما كانت البلدات الداخلية، مثل تبنين وبنت جبيل، محطات تقليدية للقوافل التجارية لقرون عدة، حولت التجارة البحرية الأنظار إلى طرق تجارية جديدة، وإلى إنشاء مرفأ بيروت وشق طريق بيروت دمشق بين عامي 1858 و1963. وقد أضرّت شبكة الطرق الجديدة بين جبل لبنان والداخل السوري وفلسطين، بمناطق مثل جبل عامل، وذلك على الرغم من قرب هذه المنطقة من المناطق الثلاث تلك. فقد تجاهلتها ومالت عنها خطوط التجارة ومفاصلها الجديدة، براً وبحراً على حد سواء. وتذكر مراجع عديدة، وجود أسواق تجارية في كل أرجاء جبل عامل، ظهرت في نقاط حدودية مع جبل لبنان (أسواق جباع في أقليم التفاح وسوق الخان في طرف منطقة حاصبيا مع جبل لبنان) ومع فلسطين (أسواق بنت جبيل ومرجعيون والخيام)، كما في الداخل (سوق النبطية). وقد شكلت تلك الأسواق أيضاً، مداخل للبرجوازية البيروتية، التي كانت مهتمة بالمنتجات الزراعية في جبل عامل، وليس بتطوير الحرف والصناعة أو البنى التحتية فيه. وخلافاً لجبل لبنان، لم يستقطب جبل عامل أي مشاريع صناعية أو استثمارات مالية مهمة. وقد تزايد اعتماد جبل عامل على تلك الوسائل فيما بعد، بخاصة إبان الحرب العالمية الأولى، إنما لم يتعدَّ الأمر نطاق الاستيراد والتصدير، بحيث لم يتجه نحو تطوير صناعي، يمكن أن يوازن اعتماده على جبل لبنان وبيروت. أما البرجوازية العاملية، فقد تحركت في الاتجاه المعاكس. ففي الوقت الذي كانت تعمل برجوازية جبل لبنان، على اللحاق بالاقتصاد العالمي والارتباط به، انصرف العامليون إلى شراء الأراضي، وذلك بسبب تركيبة مجتمعهم الاجتماعية- السياسية الداخلية، وعلاقتهم المعقدة مع قيادتهم.

المجتمع العاملي

الفلاحون: يمكن تصنيف فلاحي جبل عامل، في تلك المرحلة، في ثلاث شرائح:

الشريحة الأولى، وهي الأكبر، وتضم الفلاحين غير المالكين للأراضي. وهم أميّون، وفي درك السلم الاجتماعي، ويشكلون الفئة الأكثر استغلالاً من الآخرين.

أما الشريحة الثانية، فتشكل من صغار الملاكين الغارقين في المديونية، وقد تضاءل عديدها بسرعة في تلك المرحلة، إذ لم يكن أفرادها مهيئين للتعاطي في الوضع التجاري الجديد، فقد غامروا مثلاً، بإعطاء حسومات لبيع محاصيل المواسم المقبلة. وغالباً ما أدى ذلك إلى خسارة أراضيهم وممتلكاتهم المتبقية، نظراً لخسائرهم المتأتية من تقلبات أسعار السوق. وهذا بالطبع مضاف إلى عامل الإفقار الآخر المتمثل برسوم الإعفاء من الجندية الباهظة التكاليف في العادة. وبسبب ذلك الوضع المتقلب والمحفوف بالمخاطر، وجد فلاحو هذه الجماعة أنفسهم وقد انحدروا إلى صفوف الجماعة الأولى.

الشريحة الثالثة، وتتألف من الميسورين من مشايخ القرى ومخاتيرها، الذين استغلوا، بغالبيتهم مراكزهم الاجتماعية، للمطالبة بالمشاعات في القرى، كما حددتها الأعراف السابقة في المرحلة العثمانية. فشكلوا بذلك صلة الوصل بين الفلاحين وبين المقاطعجية، وهي صلة لم تدفع بأفراد هذه الجماعة وترفع بهم إلى مستوى هؤلاء المقاطعجيين. هذا، في الوقت الذي عهدوا فيه برعاية أراضيهم إلى فلاحي الجماعة الأولى، الذين لا يحوزون ملكيات عقارية.

العلماء

كان علماء جبل عامل تاريخياً، العنصر الاجتماعي صاحب الرؤية الخارجية الأبعد. كما كانوا أصحاب أكبر إنتاج أدبي وتأثير تربوي. والمعروف عن علماء جبل عامل أنهم أسسوا المدارس الدينية أثناء العصر الصفوي في إيران. ونتيجة لهذا التفاوت في المعرفة، جرت معظم الأعمال الثقافية ضمن عالم ديني، مهملة أبعاداً أخرى كالتراتبيات الاجتماعية- الاقتصادية، والفروقات المدنية- القروية والقبلية- الاقليمية.

كانت السلطة السياسية في جبل عامل في وكالة زعمائه. لذلك كانت هناك دائماً تحالفات سياسية ما بين الزعماء الزمنيين والعلماء. وفي ظل عدم وجود محاكم شرعية شيعية في جبل عامل، قام العلماء بدور الحكم المدني في المجتمع العاملي. وتولوا البت في الأمور الدينية- القانونية، من دون أي صفة رسمية معترف بها.

الزعماء

زعماء جبل عامل هم قادة عائلات الجبل الرئيسية، ويرجعون بأصولهم إلى قبائل عربية يمنية المنشأ. وكـ"ملتزمين" لدى السلطنة العثمانية مارس هؤلاء الزعماء سيطرة على مناطق واسعة من جبل عامل، بقيت حتى قيام الإصلاحات العثمانية في أواسط القرن التاسع عشر. إنما، مع تحديث نظام الأراضي الذي سهّل على الفلاحين الحصول على قطعة أرض، خسرت تلك العائلات احتكارها القيادة.

الوجهاء

شهد جبل عامل مع نهاية القرن التاسع عشر ظهور مجموعة جديدة من الوجهاء، تعود إلى عائلات لا صلة لها بالسلطة السياسية التقليدية. فالوجهاء أساساً برجوازيون مدينيون، غيّر ظهورهم في تركيبة جبل عامل الاجتماعية- السياسية. وشكل دخولهم إلى الحلبة السياسية تحدياً للزعماء التقليديين، مع مشاركة هؤلاء الوجهاء الزعماء في منزلتهم كأعيان في جبل عامل. وأحرز الوجهاء شهرة إضافية في المجتمع العثماني الأوسع، بسبب روابطهم التجارية والثقافية.

المجاعة

كان للحرب العالمية الأوى آثارها الفظيعة في جبل عامل، كما في سائر أرجاء سوريا. والأحوال الصحية كانت في حالة مأساوية، مع تفشي بعض الأمراض مثل الكوليرا والتيفوس. وفي هذا يكتب السيد محسن الأمين، في سيرته الذاتية، أنّه مات في قريته الصغيرة شقرا، وفي غضون ساعات قليلة، إثنا عشر شخصاً مصاباً بالكوليرا. وشرح عن الحالة المزرية التي وصلت إليها الجيوش التركية في سوريا، وعن فرارها من الحرب وعن بؤسها. ويلقي الشيخ سليمان ظاهر، باللوم على السلطة العسكرية في قضية المجاعة. ففي اعتقاده أنه لو لم تتدخّل السلطة العسكرية في تجارة الأغذية، أي أنها لو اكتفت بإمداد الجيش باحتياجاته لما كان هناك من نقص في المواد الغذائية، وحتى مع الاجتياح الكبير للجراد العام 1915. وقد حاول الشيخ ظاهر أن يثبت أن مصادر المحصولات الزراعية كانت سائدة طوال سني الحرب وأن حافز الإنتاج عند الفلاحين قد ضعف مع عدم تمكّنهم من الوصول إلى محاصيلهم.

التجنيد الإجباري

تضاعفت معاناة العامليين مع ممارسات السلطات العثمانية القمعية، ومحاولاتها سوق الرجال القادرين إلى الجندية. وفي مؤلفه عن سيرة عائلة شرف الدين، يكتب السيد عبد الحسين شرف الدين عن "سفربرلك"، بلهفة وانفعال. يكتب عن وحشية جمال باشا في تجنيد الرجال من كل الطبقات والمستويات وإعطائه الأوامر والأذون لعسكريين عاديين بقتل كل فراري. ويكتب عن العبء المالي غير المحمول على جبل عامل، وعن عجز الجبل عن أدائه. وقد أمعن في تجنيد الرجال وسوقهم إلى ميدان القتال، حتى لم يبقَ إلا المرأة والصبي والشيخ والضرير.

لا مُصالحة بلا مُمالحة

سلام الراسي

الناس بالناس
مؤسسة نوفل

قبل قيام دولة إسرائيل، كان المسافر على ظهر فرسه، من مرجعيون إلى فلسطين، يمرّ، قرب الحدود، بشجرة باسقة الأغصان، اسمها "شجرة أم شراطيط"، لكثرة الشراطيط والجِرق المنشورة على أغصانها. تلك الشجرة، كان لها مقدرة على شفاء المرضى وعلى توفير سلامة الأطفال، فإذا علّقنا على أغصانها قميص أحد المرضى أو قماط أحد الأطفال، توافرت لهما أسباب الشفاء والسلامة بإذن الله.

ويحدث أن يلتقي في ظل "أم شراطيط"، جماعات من مختلف الطوائف والأديان، جاء كل واحد منهم على نيّة مريضه أو طفله، فتجمعهم "أم شراطيط" بحنان، تحت أغصانها، كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها.

وحدث في بداية العشرينات، وفي غمرة من الأحداث الطائفية المستشرية في تلك الأنحاء، أن التقى، تحت أم شراطيط جماعتان من طائفتين بينهما ثارات ودماء لم تبرد بعد، وتكهرب الجو، بطبيعة الحال، لكن قيدوم إحدى الجماعتين استدرك وقال:

-"يا ولاد العم، نحنا وإنتو بحضن أم شراطيك، الجيرة لمن جار، والصلح مش معيار".

ويرةي أحد الذين حضروا المناسبة، أن كل واحد من رجال الجماعتين فتح "جراب زوّادته" وفلش زاده على الأرض، أمام الفريق الآخر، فأكلوا معاً، بحيث صار بين الجماعتين "خبز وملح"، لأن المثل يقول: "لا مُصالحة بلا مُمالحة".

الحركة العربية في جبل عامل

محمد مخزوم
وجوه ثقافية من الجنوب
المجلس الثقافي للبنان الجنوبي



حمل العامليون في أواخر العهد العثماني لواء الدعوة العربية وكانوا مع كل محاولة انفصالية يقوم بها العرب ضد تركيا. فتمثّلوا في جميع المؤتمرات السريّة التي عُقدت لهذه الغاية.

ولما انشغلت تركيا في غمار الحرب العالمية الأولى، اغتنم الأحرار العرب هذه الفرصة ونشطوا للعمل على إيقاظ الحركة العربية.

وعندما توج فيصل ملكاً على سورية ذهب وفد عاملي بتفويض من أهالي البلاد اشترك فيه السيد محسن الأمين وعدد من علماء الشيعة في جبل عامل للقيام بمهمة التهنئة. ويذكر قدري قلعجي أن الشيخ عبد الحسين صادق خاطب الأمير فيصلاً عند زيارته له "إنني باسم أهل جبل عامل أبايعك على الموت".

وبعد أن تبيّن للحلفاء أن العامليين مصممون على دعم الحكومة العربية وتأييدها، عينوا ضابطاً فرنسيّاً يدعى فيجل لإدارة حكومة صيدا وملحقاتها للعمل على تحويل الولاء نحو فرنسا بدل الحكومة العربية. ولما كانت وفود جبل عامل تتوالى على النبطية لإقامة اجتماع فيها أرسل فيجل عندها قوة عسكرية للنبطية في 11 تشرين الأول 1918 نشرت إعلاناً في الساحة العامة جاء فيه:

"باسم القائد العام لجيوش الحلفاء الثلاثة، انكلترا وفرنسا والشرفاء، يمنع الاجتماع العام والمظاهرات السياسية من أي نوع كانت، ومن خالف ذلك عد مسؤولاً ومستهدفاً للجزاء".

هكذا أخذ العامليون منذ اليوم الأول للسيطرة الفرنسية على مناطقهم يشعرون بأن الحلفاء يبيّتون أمراً ضدهم وضد مصيرهم، لانفرادهم بإدارة البلاد وملاحقة الوطنيين الذين يجاهرون بفكرهم الوحدوي. فازداد الشعور بالسخط وعمّت الفوضى في المنطقة وتشكلت العصابات الوطنية لمقاومة الاحتلال. وتجلى موقف العامليين بالاشتراك في المؤتمر السوري الذي عُقد في 2 تموز 1919 وتألف من أعداد متساوية من المندوبين الذين يمثلون جميع المناطق السورية آنذاك، وكان الوفد العاملي إلى المؤتمر يضم مراد غلمة من مرجعيون. وأكدت قرارات المؤتمر السوري على استقلال ووحدة سورية التي تضم لبنان وسوريا وفلسطين وأن يكون الأمير فيصل ملكاً عليها.

> **لم يرفض العامليون قيام "دولة لبنان الكبير" إلا لكونها ستاراً للاحتلال الفرنسي**

ومع اشتداد ضغط الفرنسيين على اللبنانيين للقبول بصيغة الانتداب والمطالبة باستقلال لبنان خارج نطاق نفوذ الأمير فيصل، ازدادت حركات الوطنيين ضد الفرنسيين، وتشكلت العصابات ضد الجيش الفرنسي. فعمد الفرنسيون إلى تشجيع قيام عصابات السلب والنهب مع التشييع بأنها من تدبير الحكومة العربية في دمشق. ما أدى إلى سيطرة جو من القلق والخوف دفع بكثيرين إلى ترك قراهم وديارهم في جبل عامل.

مؤتمر الحجير

إزاء الاستياء العام من تصرفات الفرنسيين في جبل عامل دعا أعيان البلاد والعلماء والمفكرون وزعماء المقاومة الوطنية إلى عقد مؤتمر عام في وادي الحجير.

وفي 24 نيسان 1920 حضر المدعوون إلى مكان المؤتمر حيث تجمعت الوفود الشعبية من كل مكان.

ولما كان تجمع الحجير قد ضم عناصر كثيرة من زعماء العصابات الوطنية المناهضة للاحتلال الفرنسي كصادق الحمزة وأدهم خنجر، فإن المؤتمر قد عُقد في جو من العداء للفرنسيين. كما أن مكان انعقاد المؤتمر في وسط منطقة جبل عامل، وفي مكان محايد بالنسبة إلى الزعماء، بعيداً عن سلطة الفرنسيين، يشير أيضاً إلى أهمية القرار الذي سيتخذ ضد فرنسا.

وأصدر المجتمعون قراراً بالاجماع، يذكر محمد جابر آل صفا ملخصه على الشكل الآتي:

"إن المؤتمرين قرروا بالاجماع انضمامهم إلى الوحدة السورية والمناداة بجلالة الملك فيصل ملكاً على سورية، ورفض الدخول تحت حماية أو انتداب الفرنسيين".

وانفض الاجتماع بعد أن فوض السيدين عبد الحسين نور الدين وعبد الحسين شرف الدين بالسفر إلى دمشق ورفع القرار إلى الحكومة السورية.

ومع أن قرار المؤتمر لم يكن موجهاً ضد المسيحيين في منطقة جبل عامل، ولو كانت نقطة ضعفه عدم اشتراكهم فيه إلا أن ما حدث بعد المؤتمر من الشغب كان ولا شك مدسوساً على الفكر الوطني. إذ إن بعض المنتفعين لدى الحاكم الفرنسي أثاروا بدافع من الفرنسيين أن المؤتمر عُقد للتنكيل بالمسيحيين، وأخذوا يحرّضون القرى المسيحية في جنوب جبل عامل على مناوأة الشيعة، كي يستطيع الفرنسيون بعدها التدخل، وتثبيت انتدابهم تحت هذا الغطاء. وهنا يذكر محمد جابر:

"إن الرئيس وكبار العلماء نادوا بلزوم الطاعة والابتعاد عن الشرور والمحافظة على أموال المواطنين المسيحيين وأملاكهم وأرواحهم ودفع الأذى عنهم. وأُنذر المعتدون والمخالفون بشر الجزاء".

تهديد ووعيد

وأمام تفاقم الثورة في جبل عامل ضد الاحتلال الفرنسي جمع الكولونيل نيجر علماء جبل عامل وأعيانه في دار الأسقفية الكاثوليكية في صيدا وألقى على مسمع من أكليروس المسيحيين ووجهائهم خطاباً تضمن التهديد والوعيد، ثم أجبرهم على إمضاء وثيقة وتعهد بالمواد الآتية:

أولاً: دفع مائة ألف ليرة عثمانية ذهبية غرامة حربية وتعويضات.

ثانياً: التعهد بإعادة الأمن وتسليم المحكومين للحكومة.

ثالثاً: إعادة المسيحيين الفارين إلى قراهم والمحافظة والتعويض عليهم.

لم يرفض العامليون قيام "دولة لبنان الكبير" إلا لكونها ستاراً للاحتلال الفرنسي. وبالرغم من أن الفرنسيين كثيراً ما لوحوا لهم بدولة الطوائف التي يشكلون فيها نسبة كبيرة، إلا أن نزعتهم القومية الصميمة جعلتهم يتجاوزون الفكرة الدينية الضيقة لهذا فإن مطلبهم الوحدوي كما كرسته قرارات مؤتمر الحجير وغيره من المؤتمرات لم يكن مطلباً انفصالياً عن لبنان، كما حاول البعض أن يفسره. لأن موقف العامليين كان موقفاً عاماً معارضاً لنوايا السياسة الفرنسية بتكوين دولة لبنان الذي أعلنه الجنرال غورو كبيراً في 1 أيلول 1920 وأتبعه بإعلان آخر في 8 أيلول أي بعد مرور أسبوع واحد على تكوين "دولة لبنان" مولد دولة أخرى في القسم الشمالي من سورية هي "دولة حلب"، فجاء رد العامليين العفوي ضد مشاريع التجزئة التي باشرتها فرنسا في المنطقة مباشرة بعد ميسلون التي عبرت عن الموقف الفعلي لأماني العرب الوحدوية.

مشاهدات وأرقام

محمد رفيق بك - محمد بهجت بك
ولاية بيروت
دار لحد خاطر

● صيدا: ليس في صيدا المحصورة بين جدران السور الخرب مرفأ. حتى أن المرفأ الشمالي المملوء اليوم بالرمال كان حوضاً لتعمير السفن. وقد أحيط هذا المرفأ من طرفيه بالصخور والأرصفة.

المعارف: كان التحصيل الابتدائي في قصبة صيدا يجري حتى مارت من عام 1333 بمعرفة جمعية المقاصد الخيرية التي أسسها المرحوم ممدحت باشا عام 1296. وقد بدأت هذه الجمعية حين تأسيسها بفتح مكتب ابتدائي يضم 150 طالباً ويديره أربعة معلمين. وبذلك الجمعية جهدها بتزييد الواردات من جهة وبتكثير عدد المكاتب من جهة أخرى.

كانت الجمعية تدير أربعة مكاتب وهي مكتب الفيضية والخيرية للذكور ومكتب الإناث في محلة الشارع ومكتبا الشمعون للذكور والإناث. ولقد كان في هذه المكاتب الأربعة 618 طالباً و532 طالبة و8 معلمين و18 معلمة.

أما المكتب الابتدائي الذي أُسس منذ أربعين سنة تحت إدارة مديرية المعارف فقد قلب إلى "نمونه" قبل بضع سنين. وفي المكتب اليوم 100 طالب.

ولقد نظر المبشرون الأميركان نظرة اهتمام بقابلية أهالي صيدا للعلوم والفنون فتوقفوا عام 1880 لتأسيس مكتب للصنائع فيها، وقد نال المكتب تدريجاً رغبة بين الآهلين. وبقدر هذه الرغبة وسعت إدارة المكتب نطاقه فأشادت له شعبة جميلة على تلة عالية مطلة على جنائن صيدا في جوار قرية "ميوميه" وقد صرفت على البناء بضعة آلاف من الليرات ونقلت إلى هذا المكان القسم الابتدائي مع الصف الأول من المكتب. وفي عام 1895 افتتحت شعبة لصنعة النجارة ولعمل الأحذية. وقد كان عدد الطلاب عام 1913 (218).

ويوجد في صيدا مكتب للإناث أنشأه المبشرون الأميركان ومكتب آخر للإناث أنشأته راهبات القديس يوسف وفي الأول 95 طالبة وفي الثاني 130 طالبة.

الأحوال الزراعية: إن جنائن البورتقال في قصبة صيدا هي ألطف الجنائن التي تبهج القلب وتشرح الصدر بمنظرها في جميع أنحاء القصبة السورية بعد الشام ويافا. فقد أحاطت حدائق البورتقال والماندرين (يوسف أفندي) بالقصبة وجعلتها بشكل بديع. وإن الروائح التي ترسلها أيام الربيع حين تفتيح الزهر يعطر جميع الأرجاء فتنعش الأفئدة وتخلب الألباب.

ويقدرون أن جنائن صيدا تخرج سنوياً (70) مليون بورتقالة و(30) مليون ليمونة حامضة. وتباع الألف بورتقالة من 20 إلى 100 غرش والألف ليمونة حامضة بخمسين غرشاً وذلك بشرط الاستلام من الجنائن. وقد أخرج من صيدا عم 1902 (50) ألف صندوق بورتقال وليمون حامض. وقد اهتم الأهلون في الأيام الأخيرة بزراعة شجر (يكي دنيا) ويقدرون محصول هذا الموسم الجميل بستماية قنطار. وعلاوة على ذلك فإنه يوجد في صيدا نحو من خمسين بستاناً تشتغل باستخراج القز. وتسقى كافة الجنائن الشمالية بمياه الباروك والجنائن الجنوبية بمياه الآبار المستخرجة بواسطة (النواعير) ويوجد في واحدة أو اثنتين من الجنائن محركات بخارية لاستخراج المياه.

● صور: سقطت أهمية صور التجارية ومركزها البحري، وانحصرت تجارتها بتصدير الحبوب التي ترد إليها من حوران وبإخراج قليل من القطن والتبغ.

أهالي صور يدفعون احتياجاتهم للماء بما يستقونه من البئر الوحيدة القائمة في المدخل الشمالي للقصبة. وإن ماء هذه البئر صافٍ ولكنّه مالح قليلاً.

نفوس صور وبلديتها: 6026 عام 1324 مالية، 6285 عام 1328 مالية، 6573 عام 1331 مالية.

نفوس قصبة صور لم تترق ولم تنمُ مطلقاً في السنين الأخيرة. وقد كانت المهاجرة إلى أميركا حتى إعلان الحرب لم تنقطع مطلقاً من جميع أنحاء القضاء. وإن من الأمور المؤسفة التي تستلفت النظر حالة الفقر والضرورة التي أصيبت بها قصبة صور التي اشتهرت بمعادنها وبقابليتها الطبيعية لتأسيس الأحراج وجنائن البورتقال وبمركزها التجاري العظيم الذي نالته في القرون الأولى. ولقد هاجر حتى الآن إلى البلاد الأجنبية من جميع القضاء خمسة آلاف شخص. وعاد إلى صور تقريباً من النصف بعد أن اكتسبوا شيئاً من الثروة.

المعارف: يوجد اليوم في القضاء 150 مكتباً 12 منها للذكور و3 للإناث. ويبلغ عدد الطلاب في المكاتب 400 منهم 250 في مكاتب الذكور و150 في مكاتب الإناث، غير أن 60 في المئة من هذين القسمين هو من غير المسلمين، و40 في المئة من أولاد المسلمين. وإنها لنسبة تستلفت النظر جداً لأن مقدار المسلمين في القضاء يقرب من ثلاثة أرباع السكان.

الأحوال الزراعية والمواسم:

83000 دونم: قمح، شعير، عدس، فول، جلبان وحلبة.

40000 دونم الأراضي التي هُيئت للمزروعات الصيفية.

570000 دونم الأراضي التي تُركت بوراً اتباعاً لطريقة المناوبة.

ظهر من هذا أن مساحة الأراضي التي تُزرع في القضاء هي عبارة عن 180 ألف دونم، وهي ثلث المساحة العمومية لأراضي القضاء. أما الثلثان الباقيان فهما إما أراضٍ غير مزروعة أو صخرية.

الأحراج: يؤخذ من المعلومات الرسمية أن عدد الأحراج في القضاء يبلغ 15 فيقطع منها في السنة 55 ألف أوقة حطب ويصنع منها 150 ألف أوقة فحم ويصدر منها سنوياً إلى الخارج 300 متر مكعب من الأخشاب. ويغلب أن تكون أشجار هذه الأحراج من السنديان والبلوط.

● النبطية: القصبة قائمة في نقطة تجارية مهمة جداً وتُقام فيها أيام الآحاد سوق عمومية لبيع وشراء الذخيرة والحبوب التي ترد إليها من أقضية مرجعيون وصفد وحاصبيا وصيدا، وسكانها أقوياء. وشبانهم اليوم إما في العسكرية أو في ديار المهاجرة أميركا. وقد قامت الأبنية التي تزدان بها القرية اليوم بالأموال التي جيء بها من البر الجديد.

ويقدرون عدد الذين هاجروا إلى أميركا من ناحية الشقيف بألفي شاب.

وفي النبطية مائة وخمسون تاجراً يشتغلون بالحبوب والأقمشة.

إن المواسم الأساسية في الناحية هي الحبوب. وعرفنا أن أهالي الناحية يعيشون مقدار أربعة أشهر ثم يضطرون لتأمين الأشهر الثمانية الباقية باشتراء الحبوب والذخيرة من السوق التي تقام عندهم. وتصلح أراضي الناحية لزراعة الموز والعنب. وكان قسم مهم من الناحية مغروساً بأشجار الزيتون. ولكن تطبيق قانون الأعشار بصورة رديئة ونفور الأهلين بدرجة شديدة ساق الأهلين إلى قطع هذه الأشجار واحدة بعد الأخرى. وبهذه الواسطة أصبح شجر الزيتون نادراً جداً في الناحية. وفي مركز الناحية مكتبان ابتدائيان أحدهما للذكور والثاني للإناث وفي الأول من -60 70 طالباً وفي الثاني من 30-50 طالبة.

ajjanoub.com
facebook.com/Ajjanoub
twitter.com/Ajjanoub



ملحق العدد الأول - تشرين الأول 2020
تنوع وحوار

الأنشطة الاقتصادية والأراضي والألقاب

محمد مراد
التملك والسلطة في الجنوب اللبناني (1920 - 1975)
منشورات الجامعة اللبنانية

أبرز الأنشطة الاقتصادية التي عرفتها منطقة جنوب لبنان، منذ مطلع القرن العشرين:

نشاط زراعي

غلب عليه نمط الانتاج الفلاحي البسيط. ساد هذا النمط في الأرياف الزراعيّة المحيطة بالمدن والقصبات السكانية، وغلب عليه طابع الاكتفاء الذاتي.
أما المزروعات التي عرفتها غير منطقة في جبل عامل فتنوّعت لتشمل القمح والجلبان والعدس والترمس والفول والذرة والحمص والشعير. وعرفت المنطقة انتشاراً واسعاً لزراعة الزيتون، لكن هذه الزراعة تراجعت قليلاً بعد تطبيق قانون الأعشار الذي فرضته السلطات العثمانية على الأراضي المغروسة بأشجار الزيتون.

نشاط حرفي

تمركز داخل المدن والقصبات الرئيسية في صيدا وصور والنبطية وبنت جبيل ومرجعيون وحاصبيا. فصناعة الأحذية راجت في بنت جبيل والنبطية، وصناعة السكاكين ظهرت في أنصار وكانت على علاقة من التبادل مع قصبة جزين التابعة لمتصرفية جبل لبنان آنذاك. وكانت قرى عديدة قد اختصت بصناعة السلال من القصب الذي كان ينبت على محاذاة مجرى الليطاني. وظهرت صناعة الأباريق والجرار الفخارية حيث تخصّصت بصناعتها بعض العائلات الصورية. واشتهرت صور بعدد من الصناعات التي لها علاقة بالانتاج الزراعي ووسائله، فراجت صناعة الجلالات للدواب، وصناعة النوارج، وصناعة البيطرة التي اشتهرت بها أسرة البيطار، وهي أسرة ممتدة في صور والنبطية.

التبغ

بدأت هذه الزراعة في أواسط القرن التاسع عشر بعدما لاقت تشجيعاً في ظل السياسة الاقتصادية التي انتهجها الحكم المصري في بلاد الشام (-1831 1840).

الأرض

عرف جبل عامل، خلال المرحلة العثمانية، أنواعاً عديدة من الأراضي اختلفت باختلاف أشكال حيازتها وامكانية التصرف بها، وأبرز هذه الأنواع كانت: الأرض الملك، الأرض الأميرية أو الميري، الأراضي المشاعية، الأراضي الوقفية، الأرض الموات.
كان استثمار الفلاح للأرض يتم بشكلين: إما حق التصرف بالأراضي التي في حوزته بعد أن يدفع الريع الاقطاعي الذي يتوزع بين الاقطاعي (صاحب المقاطعة) وخزينة الدولة، وإما بالمشاركة على أساس أنظمة المحاصصة الزراعية التي كانت شائعة في سائر أنحاء المشرق العربي ومنها ناحية جبل عامل.
وكان نظام الالتزام أحد أبرز الآليات التي تمحور حولها نظام علاقات الانتاج العثماني برمته. وقام مبدأ الالتزام على بيع ضرائب مقاطعة أو منطقة معينة لأحد الأعيان أو الوجهاء النافذين في الريف أو المدينة. وكان الملتزم يتعهد بدفع القيمة سلفاً لخزينة الدولة العثمانية ثم يقوم بجباية ضرائب تلك المقاطعة بعد جني المحاصيل.

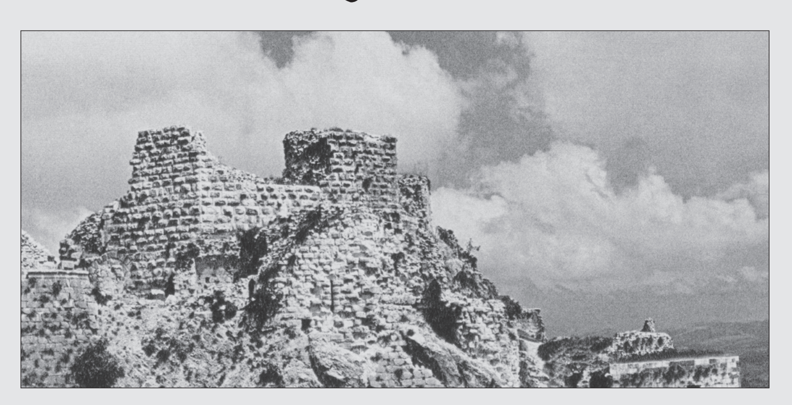
كيف انتقلت الملكيات الواسعة إلى عائلات المكانة؟

وجدت عائلات المكانة في جبل عامل في قوانين الأراضي العثمانية فرصتها الذهبية، ليس من أجل تحويل حيازتها المعتبرة بالتصرف أو الانتفاع إلى ملكيات حقوقية ثابتة ودائمة فحسب، وإنما في الإفادة من تردد الفلاحين وتمنعهم عن تسجيل أراضيهم بسبب جملة من الظروف الضاغطة التي كانت تحيط بهم أيضاً. سارعت عائلات المكانة إلى استغلال تلك الظروف وراحت تستحوذ على مساحات واسعة من الأراضي.

مواقع السلطة

الشيعية الأعيانية، في جبل عامل، جمعت بين الأفندية كموقع اجتماعي متقدم في الريف الزراعي من جهة، والبكوية- الزعامية في حضورها الوازن على مستوى توزعات السلطة السياسية عبر هيئاتها التمثيلية المختلفة من جهة أخرى.
ينطبق الأمر نفسه على الخواجية المسيحية تدليلاً على ارتقاء أبناء العائلات المسيحية المقيمة في صيدا وصور وجزين والنبطية وبنت جبيل ومرجعيون، تجارياً وعقارياً وثقافياً، وبالتالي، اجتماعياً وسياسياً.
أما الآغوية السنية فهي استحضار للقب مملوكي توارثه العثمانيون وأطلقوه على عائلات نافذة شغلت، عبر أبناء منها، وظائف متنوعة في ممارسة الالتزام كما في الأجهزة الإدارية والحكومية الأخرى.

الحدود



فواز طرابلسي
تاريخ لبنان الحديث، من الإمارة إلى اتفاق الطائف
رياض الريس للكتب والنشر

لبنان في حدوده المعينة في الأول من أيلول 1920 لم يكن له وجود من قبل في التاريخ. إنه نتاج عملية التجزئة الكولونيالية الفرنسية- البريطانية للمشرق العربي. ولم يكن إنشاؤه يعني أية عودة إلى "حدوده الطبيعية والتاريخية"، كما يدّعي القوميون اللبنانيون، ولا كان "كياناً مصطنعاً" على عكس زعم القوميين العرب، إذ إنّه لم يكن أقل أو أكثر اصطناعاً من أي من البلدان العربية المشرقية الأخرى (سورية، الأردنـ فلسطين، لعراق) التي أنشأتها عملية التجزئة. شأنه شأن سواه من تلك البلدان، فرضت حدود لبنان عليه فرضاً ضد إرادة أكثرية سكانه. وقد انحكمت نشأة لبنان الكبير بالدرجة الأولى بمصالح فرنسا في تجزئة سورية والسيطرة عليها، في إطار تجزئة الولايات العربية في السلطنة العثمانية السابقة بين باريس ولندن. وبالتأكيد طالب العديد من المسيحيين اللبنانيين بالتوسع الإقليمي لجبل لبنان وبالانفصال عن سائر أجزاء سورية، في ظل لون من الحماية أو الضمانة الفرنسيتين، إلا أن الحصيلة النهائية- لبنان الكبير في ظل الانتداب الفرنسي- لم تكن تتطابق مع برنامج أي حزب أو فريق سياسي لبناني.
ترك القيّمون على إعلان "لبنان الكبير" أمر رسم حدوده الجنوبية عالقاً بانتظار تعيين الحدود مع فلسطين وسورية. حقيقة الأمر أن قلّة من أنصار "لبنان الكبير" طالبت بضم جبل عامل إلى الكيان الجديد. بل إن أصواتاً مسيحية ارتفعت ضد ضم الجنوب، أبرزها الكنيسة المارونية وعدد من مشايخ آل الخازن.
كلفت لجنة عسكرية فرنسية- بريطانية مشتركة يرأسها الكولونيلان بوليه ونيوكومب التفاوض بصدد رسم حدود لبنان الجنوبية. عملت اللجنة من حزيران 1921 إلى شباط 1922. خلال المفاوضات طالب الوفد البريطاني بوضع حدود فلسطين الشمالية عند نهر الليطاني، وفاء لالتزام الحكومة البريطانية بالعمل من أجل "إنشاء وطن قومي لليهود" في فلسطين. ففي مذكرتها إلى مؤتمر السلام بتاريخ 3 شباط 1919، وضعت "المنظمة الصهيونية" الحدود الشمالية لـ"الوطن القومي لليهود" عند "كوع" الليطاني عندما ينحرف النهر غرباً ليصبّ في البحر الأبيض المتوسط حيث يعرف باسم القاسمية. بناء على ذلك التصوّر، لا تضم فلسطين مناطق صور وجبل عامل اللبنانية فحسب بل القسم الأكبر من هضبة الجولان وجبل الشيخ وحوران السورية. كان قصب السباق هو روافد نهر الأردن. أراد البريطانيون نهر الأردن وروافده داخل منطقة الانتدب الخاصة بهم. غير أن الغلبة كانت للفرنسيين المصممين على عدم التنازل بشأن الحدود أو مياه نهري الليطاني واليرموك. وهكذا وعلى الرغم من المعارضة الصهيونية، جرى تقسيم الجليل بين القوتين الانتدابيتين. صادقت الحكومتان في 7 آذار 1923، على الاتفاق النهائي الذي يضع الحدود اللبنانية- الفلسطينية ضمن مساحة آمنة جنوبي حوض الليطاني، فبقيت روافد الأردن داخل المنطقة الفرنسية، فيما جرى التخلّي عن بحيرة الحولة لفلسطين، ووضع الحدود الغربية عند رأس الناقورة على البحر الأبيض المتوسط.

الأماني والقرارات

إدمون رباط
التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري
منشورات الجامعة اللبنانية

لم تجرِ عملية إنشاء الدولة وفقاً للصيغ الديمقراطية، كصيغة الاستفتاء الشعبي العام التي اعتُمدت في ذلك الحين من أجل إعادة تنظيم أوروبا، بل جرت بناءً على سلسلة من القرارات اتخذها الجنرال غورو من دون الوقوف على رأي أحد.
فأصدر قراراً أوّل، رقمه 299، بتاريخ 3 آب 1920، فصل بموجبه الأقضية الأربعة: حاصبيا وراشيا والمعلقة (البقاع) وبعلبك عن ولاية دمشق، وألحقها "من حيث نظامها الإداري بالأراضي اللبنانية ذات الحكم الذاتي" (المادة الأولى). أما السبب الذي أورده لتعليل ذلك فكان "أن هناك ما يستوجب تلبية أماني الأهالي التي عبّروا عنها بملء حرّيتهم. وذلك بإلحاق أقضية حاصبيا وراشيا وبعلبك والمعلقة بأراضي لبنان ذات الحكم الذاتي لتتدبّر تنظيمها الإداري باتجاه التكوين المقبل للبنان الكبير".
أما الأماني التي جرى "التعبير عنها بملء الحريّة" فهي تلك التي تتّفق مع رغبة الأهالي المسيحيين- وهي آمانٍ لم تُضع على كل حال بشكل دقيق- لكنّها لا تتفق بالمرة مع أماني المسلمين بشكل عام، من سُنّة ودروز وشيعة، الذين كانوا قد أعربوا بأكثر من مناسبة عن اعتراضهم على عمليّة استلحاقهم بلبنان.
في 31 آب، صدرت تباعاً ثلاثة قرارات أخرى. أوّلها رقمه 320، وهو ينصّ على حلّ "المحافظة الإدارية لمدينة بيروت، بما في ذلك هيئاتها ومصالحها الإدارية المحليّة" (المادة الأولى). وينصّ بالتالي على حلّ "المجلس العام والمجلس الإداري للولاية، فضلاً عن المجالس الإدارية للألوية والأقضية التابعة لمدينة بيروت" (المادة 2).
أما القرار الثاني، ورقمه 321، فيتعلّق بـ"حلّ المحافظة الإدارية لأراضي لبنان ذات الحكم الذاتي، بما في ذلك هيئاتها ومصالحها الإدارية العامة والمحلية (المادة الأولى) ومن بينها المجلس الإداري لمتصرفيّة جبل لبنان ودوره". لكن القرار الثالث ورقمه 318، هو الذي كان الأساس الذي عُيِّنت بموجبه أراضي الدولة اللبنانية. فهو يحدّد دولة لبنان الكبير استناداً إلى الاعتبارات الآتية: "بما أن فرنسا لم تكن تبتغي منذ مجيئها إلى سوريا إلا تحقيق هدف واحد هو إتاحة المجال أمام سكان سوريا ولبنان من أجل تحقيق تطلّعاتهم المشروعة إلى الحريّة والحكم الذاتي.
"ولمّا كان من المهمّ، تحقيقاً لهذه الغاية، أن تُعاد إلى لبنان حدوده الطبيعيّة على نحو ما جرى تحديدها من جانب ممثّليه وطولب بها من قبل أهاليه بإجماع آرائهم؛ ونظراً لأن لبنان الكبير يستطيع إذا تعيّنت حدوده الطبيعيّة على هذا النحو أن يمضي كدولة مستقلّة، وبمساعدة فرنسا، في تحقيق برنامجه الذي اختطّه لنفسه لما فيه خدمة مصالحه السياسية والاقتصادية".

تنظيم الدولة

أما القرار رقم 336 تاريخ أول أيلول 1920، وهو خامس القرارات وآخرها، فهو الذي زوّد لبنان الكبير بهيكليّته كدولة.
يتألف هذا النص الأساسي من أربعين مادة. وينصّ على جعل بيروت عاصمة للبنان الكبير (المادة 4). ويعيّن دوائر الدولة الإدارية التي تشتمل بموجبه على "أربعة ألوية وبلديتين قائمتين بذاتيهما. فتتألف الأوية من اثني عشر قضاءً تنقسم بدورها إلى مديريات" (المادة 2). لقد تبنّى هذا التنظيم، على وجه الإجمال، التنظيم الاقليمي القديم الذي وضعته السلطنة العثمانية. غير أنه ألغى نظام الولاية التي كانت أرفع درجات التنظيم المذكور.
أما الألوية الأربعة فتشتمل تباعاً على لبنان الشمالي ومركزه زغرتا، ولبنان الجنوبي ومركزه صيدا، وجبل لبنان ومركزه بعبدا، والبقاع ومركزه زحلة. ويتألف كل لواء منها من أقضية عدة تنقسم بدورها إلى مديريات يسميها النص بأسمائها. أما بيروت وطرابلس فاعتُبرتا بلديتين "تشكلان أرضاً قائمة بذاتها، على أن يتحدّد وضعهما التنظيمي في ما بعد" (المادتان 5 و6).

الاحتفال الرسمي

عمد الجنرال غورو في أول أيلول 1920 إلى الإعلان عن دولة لبنان الكبير. وكان للاحتفال بهذه الولادة دويّ خاص. فقد زفّ بشرى هذا الحدث التاريخي في بهو مقرّه الكائن في قصر الصنوبر بحضور البطريك الماروني والمفتي اللذين جلسا وحدهما إلى جانبه، ومشاركة سائر الزعماء الروحيين الآخرين، وسط حشد من كبار الموظفين والأعيان. وألقى كلمة حماسية اختلطت فيها ذكريات العهود الفرنسية القديمة بالدعوة إلى استمرار الصداقة الفرنسية الراهنة- من دون أي إشارة إلى القرون الثلاثة عشر من تاريخ العرب التي خمدت أصواتها في ميسلون.